الفصل الأول

مفهوم الايمان

● **مدخل :**

ما هو « الايمان » الذى نعنيه من هذه الدراسة ، ونحاول تجلية أثره فى النفس والحياة ؟

ان الاجابة عن هذا السؤال لا تتضح الا اذا عرفنا مفهوم الايمان وحقيقته ومعناه .. فانه ليس مجرد اعلان المرء بلسانه أنه مؤمن ، فما أكثر المنافقين الذين قالوا بأفواههم آمنا ولم تؤمن قلوبهم :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

(البقرة : ٨ – ٩)

وليس الايمان مجرد قيام الانسان بأعمال وشعائر اعتاد أن يقوم بها المؤمنون .. فما أكثر الذين يتظاهرون بالصالحات ، وأعمال الخير ، وشعائر التعبد ، وقلوبهم خراب من الخير والصلاح والاخلاص لله :

﴿ ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ﴾ . (النساء : ١٤٢)

وليس هو مجرد معرفة ذهنية بحقائق الايمان ، فكم من قوم عرفوا حقائق الايمان ، ولم يؤمنوا :

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا .. ﴾ .

(النمل : ١٤)

وحال الكبر أو الحسد أو حب الدنيا بينهم وبين الايمان بما علموه من بعد ما تبين لهم الحق :

﴿ .. وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ .

(البقرة : ١٤٦)

ان الايمان فى حقيقته ليس مجرد عمل كلامى ، أو عمل بدنى ، أو عمل ذهنى .. ان الايمان ــ فى حقيقته ــ عمل نفسى يبلغ أغوار النفس ، ويحيط بجوانبها كلها من ادراك وارادة ووجدان .. فلابد من ادراك ذهنى تنكشف به حقائق الوجود على ما هى عليه فى الواقع ، وهذا الانكشاف لا يتم الا عن طريق الوحى الالهى المعصوم .

ولابد أن يبلغ هذا الادراك العقلى حد الجزم الموقن ، واليقين الجازم ، الذى لا يزلزله شك ولا شبهة :

﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا .. ﴾ .

(الحجرات : ١٥)

ولابد أن يصحب هذه المعرفة الجازمة اذعان قلبى ، وانقياد ارادى ، يتمثل فى الخضوع والطاعة لحكم من آمن به مع الرضا والتسليم :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ . (النساء : ٦٥)

﴿ انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ . (النور : ٥١)

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم .. ﴾ . (الأحزاب : ٣٦)

ولابد أن يتبع تلك المعرفة ، وهذا الاذعان ، حرارة وجدانية قلبية ، تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة ، والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية والجهاد فى سبيلها بالمال والنفس . ولهذا نجد القرآن الكريم يصف المؤمنين فيقول :

﴿ **انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ..** ﴾ . (الانفال : ٢ ـ ٤)

والقرآن الكريم يعرض دائما « الايمان » فى أخلاق حية ، وأعمال ناصعة يتميز بها المؤمنون عن الكفرة والمشركين :

﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ . (المؤمنون : ١ ـ ٥)

وقال تعالى فى وصف المؤمنين الصادقين :

﴿ **انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون** ﴾ .

(الحجرات : ١٥)

« فالايمان » هو تصديق القلب بالله ورسوله .. التصديق الذى لا يشوبه شك أو ارتياب .. التصديق المطمئن الثابت الذى لا يتزعزع ولا يضطرب ، والذى ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله .. وهذا الانطلاق الى الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ، هو انطلاق ذاتى من نفس المؤمن ، يريد أن يحقق به الصورة الوضيئة التى فى قلبه ، ليراها ممثلة فى واقع الحياة والناس .

هذه العناصر والمقومات التى ذكرناها هى التى تكون « الايمان الحق » ، أو « العقيدة الحقة » ، واذا فقد بعض هذه العناصر فان ما بقى منها لا يستحق أن يسمى « ايمانا » أو « عقيدة » ..

ويمكن أن تسمى « فكرة » أو « نظرية » أو « رأيا » . أما « الايمان الحق » فهو الذى تشرق شمسه على جوانب النفس كلها ، فتنفذ اليها أشعتها حاملة الضوء والحرارة والحياة .. حيث تنفذ هذه العقيدة الى العقل فتقنعه وتطمئنه ، والى القلب فتهزه وتحركه ، والى الارادة فتدفعها وتوجهها . واذا اقتنع العقل ، وتحرك القلب ، واتجهت

الارادة ، استجابت الجوارح واندفعت للعمل ، واستجابت الرعية للراعى المطاع[1] .

- **محتـــوى الايمـــان :**

لا يكفى أن نعرف حـــد الايمان ومفهومه حتى نعرف محتواه .. فلابد أن نعرف أى ايمان نعنى فى دراستنا هـــذه ..

انه الايمـــان « الدينى » ، الذى صحب البشرية منـــذ نشأتها ، ولم يفارقها فى صباها وشبابها وكهولتها ، ولم يزل سـلطانه مهيمنا على الكثير من تصرفاتها وأعمالها .. انه الايمان الذى يتجسد فى خاتمـة العقائد السماوية ، « عقيدة الاسلام » ، كما أوضحها القرآن الكريم ، وهدى الرسول العظيم ، متمثلة فى الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين والكتب السـماوية .

وهـــذه العقيدة هى التى تحل لغز الوجود ، وتفسر للانسان سر الحياة والموت وتجيب عن أسئلته الخالدة : من أين ؟ والى أين ؟ ولم ؟ ان هـــذه العقيدة ليست من مستحدثات الاسلام .. انها العقيدة الخالصة المصفاة ، التى بعث بها أنبياء الله جميعا ، ونزلت بها كتب السماء قاطبة ، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل . انها الحقائق الخالدة التى لا تتغير ولا تتطور ، عن الله ــ سبحانه ــ وعن صلته بهذا العالم ، وعن حقيقة هـــذه الحياة ودور الانسان فيها وعاقبته بعدها .. انها الحقائق التى علمها آدم لبنيه ، وأعلنها نوح فى قومه ، ودعا اليهـا هود وصالح ، عادا وثمودا ، ونادى بها ابراهيم واسماعيل واسحاق وغيرهم من رسل الله ، وأكدها موسى فى توراته ، وعيسى فى انجيله .

كل ما فعله الاسلام ، هو أنه نقى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة ، وصفاها من الأجســام الغريبة ، التى أدخلتها العصـــور عليها ، فكدرت صفاءها وأفسدت توحيدها بالتثليث واتخاذ الأرباب من دون الله ، وأفسدت

---

(١) يوسف القرضاوى : الايمان والحياة (ط ٧) . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٠) ، ص ١٥ ــ ١٧

تنزيهها بالتشبيه والتجسيم ، وشوهت نظرتها الى الكون والحياة والانسان ، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم • كما عرض الاسلام هذه العقيدة عرضا يليق بالرسالة التى اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الالهية •• وأن تكون غاية كل البشر ، الى قيام الساعة •

جاءت عقيدة الاسلام فنقت عقيدة التوحيد وكمال الألوهية مما شابها على مر العصور ، ونقت فكرة النبوة والرسالة مما عراها من سوء التصور •• ونقت فكرة الجزاء الأخروى مما دخل عليها من أوهام الجاهلين وتحريف المغالين وانتحال المبطلين ودجل المشعوذين •

والعناصر الأساسية لهذه العقيدة هى : الايمان بالله ، والايمان بالنبوات ، والايمان بالآخرة •• ويمكن أن نجمل فى الايمان : الايمان بالله واليوم الآخر •• والايمان بالله يشمل : الايمان بوجوده ، والايمان بوحدانيته ، والايمان بكماله ، سبحانه ••

أولا : وجود الله تعالى :

لقد قامت الأدلة على أن وراء هذا الكون العظيم قوة عليا تحكمه وتدبر شئونه وتتحكم فيه •• سماها أحدهم « العلة الأولى » ، وسماها غيره « العقل الأول » ، وسماها ثالث « المحرك الأول » ، وسماها أحد الفلاسفة « سوبرمان » ، وسماها القرآن العربى المبين وسائر الكتب السماوية بهذا الاسم الجامع لصفات الكمال والجمال والجلال « الله » •

فهذه القوة العليا ، وبعبارة أخرى : هذا الاله العظيم ، ليس فى مقدور العقل البشرى ادراك كنهه ، ولا معرفة حقيقته • كيف وقد عجز عن معرفة كنه ذاته ونفسه وحقيقة الحياة وكثير من حقائق الكون المادية من كهرباء ومغناطيسية وغيرها وما عرف الا آثارها ، فكيف يطمع فى معرفة ذات الله العلى الكبير ؟ قال تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل • لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ﴾ • (الأنعام : ١٠٢ ــ ١٠٣)

هـذا الاله ليس اله فصيلة محـدودة ، ولا اله شـعب خاص ، ولا اله اقليم معين .. وانمـا هو « رب العالمين » ، « رب السـموات والأرض » ، « رب المشرق والمغرب » :

﴿ قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء .. ﴾ .

(الأنعام : ١٦٤)

وقد دلل القرآن الكريم على وجود الله بطرق عديدة :

ـ فينبه العقـول والأذهان الى ما فى الكون من آيات تنطق بأن وراءها صانعا حكيما ، وهذا احدى البدهيات عنـد العقل الذى يؤمن بمبدأ « السـببية » ايمانا طبيعيا لا يحتاج الى تدليـل ، قال تعالى :

﴿ ان فى خلق السـموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ . (البقرة : ١٦٤)

هذا الخلق لابد له من خالق ، وهذا النظام لابد له من منظم :

﴿ أم خلقوا من غـير شيء أم هم الخالقـون . أم خلقوا السـموات والأرض .. ﴾ . (الطور : ٣٥ ـ ٣٦)

ـ ويستثير الفطرة الانسانية السليمة التى بها يدرك المرء ادراكا مباشرا أن له ربا والها قويا عظيما يكلؤه ويرعاه :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليهـا ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(الروم : ٣٠)

واذا اختفت هذه الفطرة فى ساعات الرخاء واللهو فانها تعود الى الظهور عند الشـدة والبأسـاء . وسرعان ما يذوب الطلاء الكاذب ، وينكشف المعـدن الأصيل فى النفس البشرية ، فتعود الى ربها داعيـة متضرعة :

﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هـذه لنكونن من الشاكرين ﴾ . (يونس : ٢٢)

وتبدو هذه الفطرة حين يفاجأ الانسان بالسؤال عن مصدر هـذا الكون ومدبره ، فلا يملك الا أن يعلن قائلا : « الله » :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله .. ﴾ . (العنكبوت : ٦١)

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فأنى تصرفون ﴾ . (يونس : ٣١ ـ ٣٢)

ويستشهد القرآن الكريم بالتاريخ الانسانى على أن الايمان بالله وبرسله كان سـفينة النجاة لأصحابه ، وأن التكذيب به ورسـله كان نذير الهلاك والبوار .. ففى نوح يقول :

﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، انهم كانوا قوما عمين ﴾ . (الأعراف : ٦٤)

وفى هـود يقول :

﴿ فانجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين ﴾ . (الأعراف : ٧٢)

وفى صـالح وقـومه يقول :

﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾ . (النمل : ٥٢)

وفى رسل الله جميعا يقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم محمـدا صلى الله عليه وسلم :

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ . (الروم : ٤٧)

ثانيا : انما الله اله واحـد :

فهـو تعالى اله واحـد لا شريك له ، وليس له مثـل فى ذاته أو صفاته . قال تعالى :

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحـد ﴾ . (سورة الاخلاص)

﴿ والهـكم إلـه واحـد ، لا اله الا هو الرحمن الرحيم ﴾ .
(البقرة : ١٦٣)

وكل ما فى الكون من ابداع ونظام يدل على أن مبـدعه ومدبره واحد .. ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل مدبر ، وأكثر من يد تنظم ، لاختل نظامه ، وصدق الله تعالى :

﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسـدتا ، فسـبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ . (الأنبياء : ٢٢)

﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ﴾ .
(المؤمنون : ٩١)

وهو تعالى واحد فى ربوبيته .. فهو رب السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن ، فخلق كل شىء وقدره تقديرا ، وأعطى كل شىء خلقـه ثم هدى . ولا يستطيع أحد من خلقه أن يدعى أنه الخـالق أو الرازق أو المدبر لذرة فى السماء أو الأرض :

﴿ وما ينبغى لهم وما يستطيعون ﴾ . (الشعراء : ٢١١)

وهو تعالى واحد فى ألوهيته ، فلا يسـتحق العبـادة الا هو ، ولا يجوز التوجه بخوف أو رجاء الا اليه . فلا خشية الا منه ، ولا ذل الا اليه ، ولا طمع الا فى رحمته ، ولا اعتماد الا عليـه ، ولا أتقيـاد الا لحكمه .

والبشر جميعا ـ دون استثناء ـ عباد الله ، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

ومن ثم كانت دعوة الاسلام الى الناس كافة والى أهل الكتاب خاصة :

﴿ تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله .. ﴾ .

(آل عمران : ٦٤)

ومحمد ـ نبى الاسلام ـ لم يقل القرآن عنه الا أنه :

﴿ رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ . (آل عمران : ١٤٤)

ولم يقل هو عن نفسه الا أنه « عبد الله ورسوله » ، وجاء فى الحديث النبوى الشريف :

ـ « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ولكن قولوا عبد الله ورسوله » . (رواه البخارى)

والأنبياء جميعا ليسوا ـ فى نظر القرآن ـ الا بشرا مثلنا ، اصطفاهم الله لحمل رسالته الى خلقه ، ودعوتهم الى عبادته وتوحيده . ولهذا كان النداء الأول فى رسالة كل واحد منهم :

﴿ ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ﴾ .

(الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥) و (هود : ٥٠ ، ٦١)

﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

(النحل : ٣٦)

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون ﴾ . (الأنبياء : ٢٥)

وكانت « لا اله الا الله » ايذانا بمولد مجتمع جديد ، يغاير مجتمع الجاهلية .. مجتمع متميز بعقيدته ، متميز بنظامه ، فلا عنصرية فيه ولا طبقية ولا اقليمية ، لأنه ينتمى الى الله وحده ، ولا يعرف الا الولاء له سبحانه .. وقد أدرك زعماء الجاهلية ما تنطوى عليه دعوة

« لا اله الا الله » من تقويض عروشهم والقضاء على جبروتهم واعانة المستضعفين عليهم • فلم يألوا جهدا فى حربها ، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجا •

لقد كانت مصيبة البشرية الكبرى أن أناسا منهم جعلوا من أنفسهم أو جعل منهم قوم آخرون آلهة فى الأرض أو أنصاف آلهة ، لهم يخضع الناس ويخشعون ، ولهم يركعون ويسجدون ، ولهم ينقادون ويستسلمون • ولكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين ، فلم يعد عندهم بشر الها ، أو ابن اله •• ولم يعد بشر يسجد لبشر أو ينحنى لبشر أو يقبل الأرض بين يدى بشر •• وهذا أصل الأخوة الانسانية الحقة ، وأصل الحرية والكرامة الحقة ، اذ لا أخوة بين عابد ومعبود ، ولا حرية لانسان أمام مدعى ألوهية ، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله أو يتخذه حكما من دون الله •

قال أبو موسى الأشعرى[1] : انتهينا الى النجاشى وهو جالس فى مجلسه ، وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس فى صفين منتظمين • وقد قال عمرو وعمارة للنجاشى ــ وهما مندوبا مشركى مكة الى النجاشى ــ انهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بادرنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك ، فقال جعفر بن أبى طالب : لا نسجد الا لله !•• فرغم أنهم مهاجرون وغرباء لاجئون ، وهم فى أرض هذا الملك وفى حوزته ، أبوا أن يفرطوا فى توحيدهم لحظة واحدة فيسجدوا لغير الله ، وأعلنها جعفر كلمة أصبحت شعارا لكل مسلم « لا نسجد الا لله » •

ثالثا : كمال الله تعالى :

ولابد مع الايمان بوجود الله ووحدانيته من الايمان بأنه تعالى متصف بكل كمال يليق بذاته الكريمة :

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٥

﴿ لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحـد ﴾ .

(الاخلاص : ٣ ــ ٤)

﴿ .. ليس كمثله شيء ، وهو السـميع البصير ﴾ .

(الشورى : ١١)

فهو سبحانه وتعالى العليم الذى لا يخفى عليه شيء :

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين ﴾ . (الأنعام : ٥٩)

وهـو العزيز الفعال لمـا يريد ، الذى لا يغلبـه شيء ، ولا يقهر ارادته شيء :

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير ﴾ .

(آل عمران : ٢٦)

وهو القـدير الذى لا يعجزه شيء .. يجيب المضـطر اذا دعاه ، ويكشف السـوء ، ويحيى العظـام وهى رميم ، ويعيـد الخلق كمـا بدأهم أول مرة :

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ . (الملك : ١)

وهو الحكيم الذى لا يخلق شيئا عبثا ، ولا يترك شـيئا سدى ، ولا يفعل فعلا أو يشرع شرعا الا لحكم ، عرفهـا من عرفها وجهلها من جهلها . وهـذا ما شـهد به الملائكة فى الملأ الأعلى :

﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم ﴾ .

(البقرة : ٣٢)

وما شهد به أنبياء الله وأولياؤه ، وأولوا الألباب من عباده :

﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هـذا باطلا سبحانك .. ﴾ .

(آل عمران : ١٩١)

وهو الرحيم الذى سبقت رحمته غضبه ، ووسعت رحمته كل شيء ، كما وسع علمه كل شيء . وقد حكى القرآن الكريم دعاء الملائكة :

﴿ .. ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما .. ﴾ . (غافر : ٧)

وقال :

﴿ .. عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شيء .. ﴾ .
(الأعراف : ١٥٦)

وقد بدأت سور القرآن بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » للدلالة على سعة رحمته وتقوية الرجاء فى قلوب عباده ، وان تورطوا فى الذنوب والآثام . قال تعالى :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، أن الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم ﴾ . (الزمر : ٥٣)

فالاله فى الاسلام ليس بمعزل عن هذا الكون بما فيه ومن فيه ، كاله « أرسطو » ، الذى أسماه « المحرك الأول » أو « العلة الأولى » ، ووصفه بصفات لا فاعلية لها ولا تأثير .. ان هذا الاله المعزول عن الكون ، الذى عرفه الفكر اليونانى القديم ، لا يعرفه الاسلام .. وانما يعرف الها :

﴿ خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى . الله لا اله الا هو ، له الأسماء الحسنى ﴾ .
(طه : ٤ ـ ٨)

﴿ الله لا اله الا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم . له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما ، وهو العلى العظيم ﴾ .
(البقرة : ٢٥٥)

الاله فى الاسلام هو خالق كل شىء ، ورازق كل حى ، ومدبر كل أمر ، أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا ، ووسع كل شىء رحمة .. خلق فسوى ، وقدر فهدى ، يسمع ويرى ، ويعلم السر والنجوى :

﴿ .. ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة .. ﴾ . (المجادلة : ٧)

له الخلق والأمر ، وبيده ملكوت كل شىء ، يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويرزق من يشاء بغير حساب .. له ما فى السموات والأرض ملكا وملكا . لا يملك أحد مثقال ذرة فى السموات والأرض ، فالشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، والأرض وما عليها ممهدة بقدرته ومسيرة بمشيئته ووفق حكمته .

هو الذى يرسل الرياح لتثير سحابا ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ثم يجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله . وهو الذى سخر الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه ، وهو الذى جعل الأرض ذلولا ليمشى الناس فى مناكبها ويأكلوا من رزقه ..

فكل من فى السموات والأرض خلقه وعباده .. الملائكة فى السموات ، والجن والانس فى الأرض ، كلهم فى قبضة قدرته ، وطوع مشيئته : الملائكة جنده المطيعون بفطرتهم :

﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ . (الانبياء : ٢٧)

﴿ .. لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .
(التحريم : ٦)

والجن والانس ــ وان أعطاهم الحرية والاختيار ــ لا يخرجون

عن مشـــيئته وسلطانه ، لا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة ولا نشورا ، ومن تمرد منهم على العبـــودية له اليوم فســـوف يعترف بها غـــدا :

﴿ ان كل من فى الســـموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ .

(مريم : ٩٣ ــ ٩٥)

الكون كله ــ عاليه ودانيه ــ صامته وناطقه ــ خاضع لأمر الله . منقاد لقانون الله ، شاهد بوحدانيته وعظمته ، ناطق بآيات علمه وحكمته ، دائم التســـبيح بحمده :

﴿ تسبح له السموات الســـبع والأرض ومن فيهن ، وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا ﴾ .

(الاسراء : ٤٤)

ان تسبيح الكون لله ، وسجوده له سبحانه ، حقيقة كبيرة ، عميت عنهـــا أعين ، وصـــمت عنها آذان ، ولكنها تجلت للذين ينظرون بأعين بصائرهم ويسمعون بآذان قلوبهم ، فاذا هم يرون الكون كله محرابا ، والعوالم كلها ســـاجدة خاشعة ، ترتل آيات التسبيح والثناء على الخالق ســـبحانه ، الرحمن الرحيم ، العزيز الحكيم :

﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ . (الرعد : ١٥)

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس .. ﴾ .

(الحج : ١٨)

﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ﴾ . (الحديد : ١ ــ ٢)

رابعا : الايمـــان بالنبـــوات :

ان الايمان بالنبوة ليس بالأمر العجيب بعـــد الايمان بكمال الله وحكمته ورحمته ورعايته للكون وتدبيره للعالم ، وتكريمه للانسان . بل هذا الايمان فرع من ذلك ولابد ، فما كان الله ليخلق الانســـان ويسخر له ما فى الكون جميعا ، ثم يتركه يتخبط على غير هدى .. بل كان من تمام الحكمة أن يهديه سبيل الآخرة كما هداه سبيل الحياة الدنيا ، وأن يهيىء له زاده الروحى كما هيأ له زاده المـــادى ، وأن ينزل الوحى من السماء ليحيى به القلوب والعقول ، كما أنزل من السماء ماء لتحيا به الأرض بعد موتها .

ولهذا استنكر رسل الله من قومهم أن يعجبوا لأن الله أرسل عنه رسولا يبلغهم بأمره ونهيه ، فيقول نوح :

﴿ .. يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين . ابلغكم رسالات ربى وانصح لكم واعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ .

(الأعراف : ٦١ ــ ٦٣)

ويقول هود لقومه ما يقرب من هذا القول .

ويقول القرآن الكريم ردا على المشركين الجاحدين برسالة محمـــد عليه السلام :

﴿ اكان للناس عجبا ان أوحينا الى رجل منهم أن انذر الناس وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون ان هذا لساحر مبين ﴾ . (يونس : ٢)

والهـــداية بالوحى هى أعلى مراتب الهـــداية التى منحهـــا الله للإنســـان[1] ..

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٠ ــ ٣١

١ ـ **فهناك الهداية الفطرية الكونية :** وهذه الهداية ليست قاصرة على الانسان ، بل تشمل أيضا الحيوان وسائر الكائنات ، وهى التى عبر عنها بالوحى فى شـأن النحل :

﴿ وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ . (النحل : ٦٨)

بل هى منبثة فى أجزاء الكون كله : فى النبات الذى يمتص غذاءه من عناصر الأرض بنسب محدودة وقـدر معلوم ، وفى الكواكب التى يسـير كل منها فى مداره الذى لا يتعـداه ، وفـق قانون لا يتخطاه :

﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ﴾ . (يس : ٤٠)

فهى هداية عامة للمخلوقات ، ولهذا ذكر لنا القرآن الكريم جواب موسى عليه السـلام لفرعون الذى قال :

﴿ فمن ربكما يا موسى . قال ربنـا الذى أعطى كل شىء خلقـه ثم هدى ﴾ . (طـه : ٤٩ ـ ٥٠)

وقال تعـالى :

﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى ﴾ .

(الأعلى : ١ ـ ٣)

٢ ـ **والمرتبـة الثانيـة للهـداية ـ مرتبة الحـواس الظـاهرة :** كالحواس الخمس ، والباطنة كالاحساس مثل الجوع والعطش والانفعال مثل الفرح والحزن ، وهـذه المرتبـة أرقى من الأولى ، اذ فيها قـدر من الادراك .

٣ ـ **والمرتبة الثالثـة : هـداية العقـل بملكاته وقواه المختلفـة :** وهـذه أرقى مرتبة من الحواس ، وان كان كثيرا ما يعتمد على الحس فى الحكم والاستنباط ، وبذلك يتعرض للخطأ ، كما يتعرض له فى ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج . والعمليات العليا للعقل من الخصـائص التى انفرد بها الانسان عن سائر الكائنات .

٤ ـ **والمرتبة الرابعة : هى هداية الوحى** : وهى التى تصحح خطأ العقل ، وتنفى وهم الحواس ، وترسم الطريق الى ما لا سبيل للعقل أن يصل اليه وحده ، وترفع الخلاف فيما لا يمكن أن تتفق عليه العقول :

﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ . (البقرة : ٢١٣)

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط .. ﴾ . (الحديد : ٢٥)

﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .. ﴾ . (النساء : ١٦٥)

والايمان بالنبوة والرسالة يتضمن فى ثناياه معانى عديدة نلخصها فيما يأتى :

١ ـ فمعناه الايمان بحكمة الله البالغة ، ورحمته الواسعة .. فحكمة الحكيم ورحمة الرحيم هما اللتان اقتضتا ألا يترك الناس سدى ، وألا يعذبوا قبل البلاغ والتبشير والانذار ، وألا يتركوا للخلاف يأكلهم دون حكم يرجعون اليه :

﴿ ايحسب الانسان أن يترك سدى ﴾ . (القيامة : ٣٦)

﴿ .. وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ . (الاسراء : ١٥)

﴿ .. فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ . (البقرة : ٢١٣)

٢ ـ ومعناه الايمان بوحدة الدين عند الله ، وأن دين الله فى جميع الأماكن والأزمان واحد لا يتغير ، وان تغيرت المناهج والشرائع باختلاف العصور :

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون ﴾ . (البقرة : ١٣٦)

ويصور رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم موقفه من الأنبياء قبله ، أنه ليس الا اللبنة الأخيرة فى هذا الصرح الكبير ، فيقول :

« مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة .. فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

٣ ــ ومعناه الايمان بمثل عليا انسانية واقعية ، وقدوات بشرية ممتازة ، استطاعت أن تجعل من مكارم الأخلاق وصالح الأعمال وفضائل النفوس ، حقائق واقعة وشخوصا مرئية للناس ، وليست مجرد أفكار أو أمانى أو نظريات . وجمهور الناس ليسوا فلاسفة يؤمنون بالمجردات ، وانما يتأثرون وينفعلون ويؤمنون بما يشاهدون وما يحسون . ولهذا جعل الله الرسل الى الناس بشرا مثلهم ، لا ملائكة من غير جنسهم . لأن الانسان لا يأنس الا لمثله ولا يقتدى الا بمثله . وقد استبعد المشركون أن يكون الرسول بشرا ، وقالوا منذ عهد نوح :

« .. ولو شاء الله لأنزل ملائكة .. » . (المؤمنون : ٢٤)

وقالوا فى عهد محمد عليه السلام :

« .. أبعث الله بشرا رسولا » . (الاسراء : ٩٤)

فرد الله عليهم بقوله :

« قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » . (الاسراء : ٩٥)

فالأنبياء ليسوا فى نظر القرآن آلهة ، ولا أنصاف آلهة ، ولا أبناء ملائكة ، انهم بشر مثلنا .. من الله عليهم بنعمة الوحى ، ليبلغوا رسالة الله للناس :

« قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن ناتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . (ابراهيم : ١١)

خامسا : الايمـان بالآخـرة :

اتفقت كلمة البشر على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البـدن ، وأنها لا تموت موت فناء ــ أى زوال مطلق ــ وانما الموت المحتوم هو ضرب من الخفـاء ، وان اختلفت منازعهم فى تصـوير ذلك البقاء ، وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه •• هذا الشـعور العام بحياة بعد هذه الحيـاة ، والمنبعث من جميـع الأنفس ، قـديما وحديثا ، لا يمكن أن يعتبر ضلالا عقليا أو نزعة وهمية ، وانما هو من الالهامات التى اختص بها هذا النوع • فكما ألهم الانسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هـذه الحياة الدنيا ، كذلك ألهمت العقول ، وشعرت النفوس ، أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان فى الوجود • بل الانسان ينزع هذا الجسد ، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر ، وان لم يدرك كنهه ••

ولكن كيف يسيغ العقل أن ينفض سـوق هذه الحياة وقـد نهب فيها من نهب ، وسرق فيها من سرق ، وبغى فيها من بغى •• ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه • بل اسـتتر واختفى ، فأفلت ونجا ، أو تمكن من اخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت ؟

وفى الجانب الآخر ، كم أحسن قوم ، وضحوا وجاهدوا ، ولم ينالوا جزاء ما قدموا ، اما لأنهم كانوا جنودا مجهولين ، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم بدل أن يعترفوا بفضلهم ، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمرة ما عملوا من خير • وكم من قوم دعوا الى الحق ، واستمسكوا به ، ودافعوا عنه ، فوقف الظالمون فى طريقهم ، وأوذوا واضطهدوا ، وسقطوا صرعى فى سـبيل الحـق ، وأعـداؤهم الطغاة فى أمن وعافية بل فى ترف ونعيم •

ان العقل الذى يؤمن بعـدالة الاله الواحـد ، يطلب أن توجـد دار أخرى يجزى فيها المحسن باحسانه ، والمسىء باسـاءته • وهـذا ما تنطق به الحكمـة السـارية فى كل ذرة من السـموات والأرض :

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾ .
(الدخان : ٣٨ ــ ٤٠)

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ . (ص : ٢٧ ــ ٢٨)

﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ . (النجم : ٣١)

أما بعث الأحياء بعد الموت فليس بعزيز على من خلقهم أول مرة :

﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾ . (الروم : ٢٧)

بهذا الخلق الأول يستدل القرآن على امكان البعث ، كما يستدل عليه بمظاهر قدرة الخالق سبحانه فى عالم النبات :

﴿ يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ .
(الحج : ٥ ــ ٧)

ويستدل القرآن الكريم على امكان البعث بخلق الأجرام العظيمة فى هذا الكون ، وهى أكبر من خلق الناس وأعظم :

﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى ، وهو الخلاق العليم ﴾ . (يس : ٨١)

﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بلى ، انه على كل شىء قدير ﴾ .

(الأحقاف : ٣٣)

وبعد أن يبعث الناس من قبورهم يكون الحساب الدقيق ، والميزان العادل :

﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، ان الله سريع الحساب ﴾ . (غافر : ١٧)

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾ .

(الأنبياء : ٤٧)

وهناك ينقسم العباد الى شقى وسعيد :

﴿ فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ، ان ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ، عطاء غير مجذوذ ﴾ . (هود : ١٠٦ ـ ١٠٨)

* * *

مزايا العقيدة الاسلامية

للعقيدة الاسلامية مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد ، فهى تتميز بما يأتى :

١ ـ أنها عقيدة واضحة :

فهى عقيدة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض ، وتتلخص فى أن وراء هذا العالم البديع المنسق المحكم ربا واحدا خلقه ونظمه ، وقدر كل شىء فيه تقديرا ، وهذا الاله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد :

﴿ .. بل له ما فى السموات والأرض ، كل له قانتون ﴾ .

(البقرة : ١١٦)

وهذه عقيدة واضحة مقبولة .. فالعقل يطلب دائما الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ، ويريد أن يرجع الأشياء دائما الى سبب واحد . فليس فى عقيدة التوحيد ما فى عقائد التثليث ونحوها من الغموض والتعقيد الذى يعتمد على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين « اعتقد وأنت أعمى » .

٢ ـ أنها عقيدة الفطرة :

فهى عقيدة ليست غريبة على الفطرة أو متناقضة معها ، بل هى منطبقة عليها تمام الانطباق . وهذا هو صريح القرآن الكريم :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(الروم : ٣٠)

وكذا صريح الحديث النبوى الشريف : « كل مولود يولد على الفطرة ـ أى على الاسلام ـ وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . (متفق عليه) ، فدل على أن الاسلام هو فطرة الله ، فلا يحتاج الى تأثير من الوالدين[1] .

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٧

٣ ــ أنها عقيدة ثابتة :

فهى عقيدة ثابتة محددة ، لا تقبل الزيادة أو النقصان ، ولا التحريف أو التبديل • فليس لحاكم من الحكام ، أو مجمع من المجامع العلمية أو غيرها ، أن يضيف اليها أو يحور فيها ، وكل اضافة أو تحوير مردودة على صاحبها • والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد ــ أى مردود عليه » (متفق عليه) •

والقرآن الكريم يقول مستنكرا :

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله .. ﴾ •

(الشورى : ٢١)

٤ ــ أنها عقيدة مبرهنة :

فهى لا تكتفى فى تقرير قضاياها بالالزام المجرد والتكليف الصارم ، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى : « اعتقد وأنت أعمى » أو « أغمض عينيك ثم اتبعنى » ، بل يقول الكتاب الكريم :

﴿ .. قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ﴾ • (البقرة : ١١١)

وكذلك لا تكتفى بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليهما أساسا من أجل الاعتقاد ، بل تتبع قضاياها بالحجة الدامغة ، والبرهان الناصع ، والتحليل الواضح المقنع ، الذى يملك زمام العقول ، ويأخذ طريقه الى القلوب .. فنرى القرآن الكريم فى قضية الألوهية ، يقيم الأدلة من الكون الذى نعيش فيه ومن النفس ومن الأحداث التاريخية ، على وجود الله سبحانه ، وعلى وحدانيته وعظمته وكماله .. وفى قضية البعث ، يدلل على امكانه بخلق الانسان أول مرة ، وخلق السموات والأرض ، واحياء الأرض بعد موتها • ويدلل على حكمته بالعدالة الالهية فى اثابة المحسن ، وعقوبة المسىء :

﴿ .. ليجزى الذين اساءوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى ﴾ • (النجم : ٣١)

٥ ـ عقيدة وسـط :

(أ) فهى عقيدة وسط لا تجد فيها افراطا ولا تفريطا :

فهى وسط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل اليه حواسهم ، وبين الذين يحاولون أن يثبتوا للعالم أكثر من اله أو يحلون روح الاله فى الملوك والحكام أو فى بعض الحيوانات .. فقد رفضت الانكار الملحد ، كما رفضت التعديد الجاهل ، والاشراك الغافل ، وأثبتت للعالم الها واحدا ، لا اله الا هو :

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ، ان كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل فلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله ، قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ، ان كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل فانى تسحرون ﴾ .

(المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٩)

(ب) وهى عقيدة وسط فى صفات الاله :

فليس فيها الغلو فى التجريد ، الذى يجعل صفات الاله مجرد أسلوب لا تعطى معنى ، ولا توحى بخوف أو رجاء ، كما فعلت الفلسفة اليونانية .. ويقابل هذا أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذى وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية ، حيث جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس ، ووصفته بالتحيز والمحاباة والقسوة ، وغير ذلك مما لا يتفق مع عظمته وجلاله سبحانه ..

ولكن عقيدة الاسلام تقرر تنزيه الخالق ـ سبحانه ـ عن مشابهة مخلوقاته ، قال تعالى :

﴿ ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير ﴾ . (الشورى : ١١)

﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ . (الاخلاص : ٤)

ومع هذا تصفه ـ تفصيلا ـ بصفات ايجابية فعالة :

﴿ الله لا اله الا هو ، الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه ، يعلم ما بين

أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما ، وهو العلى العظيم ﴾ .

(البقرة : ٢٥٥)

﴿ ان بطش ربك لشديد . انه هو يبدىء ويعيد . وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد . فعال لما يريد ﴾ (البروج : ١٢ ــ ١٦)

وهى مع هذا تفتح الباب للنظر فى الكون والتفكر فيه ، قال تعالى:

﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ . (يونس : ١٠١)

﴿ أو لم يتفكروا فى أنفسهم .. ﴾ . (الروم : ٨)

﴿ وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ﴾ .

(الذاريات ٢٠ ــ ٢١)

وهى وسط فى علاقتها بالعقائد الأخرى ، فلا تقبل الذوبان فى غيرها ، بل تدعو فى قوة الى الثبات عليها والاستمساك بها :

﴿ فتوكل على الله ، انك على الحق المبين ﴾ . (النمل : ٧٩)

﴿ فاستمسك بالذى أوحى اليك ، انك على صراط مستقيم ﴾ .

(الزخرف : ٤٣)

ولكنها لا تتعصب ضد غيرها من العقائد السماوية ، قال تعالى :

﴿ .. الله ربنا وربكم ، لنا اعمالنا ولكم اعمالكم .. ﴾ .

(الشورى : ١٥)

بل يتسع صدرها لما يخالفها ، قال تعالى :

﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ . (الكافرون : ٦)

﴿ .. لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وانا برىء مما تعملون ﴾ . (يونس : ٤١)

والعقيدة الاسلامية تهيب بأصحابها أن يدعوا اليها ، قال تعالى :

﴿ ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ﴾ . (فصلت : ٣٣)

ولكنها لا ترضى باكراه أحد على اعتناقها ، قال تعالى :

﴿ لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى .. ﴾ .

(البقرة : ٢٥٦)

ولا تقبل التهاون فى هوادة من يحاربونها ويضعون العراقيل فى سبيلها ، وان كانوا من ذوى القربى :

﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم .. ﴾ .

(المجادلة : ٢٢)

ولكنها لا تقبض يد البر والمعونة عمن يخالفها ولا يعتدى على أهلها ، قال تعالى :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين ﴾ .

(الممتحنة : ٨)

ولقد رفضت عقيدة الاسلام الظن فى أصول العقيدة ، فضلا عن الشك أو الوهم ، قال تعالى :

﴿ وما يتبع اكثرهم الا ظنا ، ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ .

(يونس : ٣٦)

﴿ وما لهم به من علم ، ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ . (النجم : ٢٨)

ومع هذا تسامحت فى الخواطر التى لا يسلم منها العقل البشرى ، بل اعتبرتها أحيانا دليل يقظة العقل ، ومظنة الطمأنينة وعلم اليقين . قال بعض الصحابة[1] : « انا نجد فى أنفسنا ما لو أن نصير حمما ــ فحما محترقا ــ أهون من أن نتكلم به » ــ يعلنون خطرات ترد عليهم

(١) المرجع السابق : ص ٤٢

فى قضايا الألوهية ــ فقال النبى فى صراحة وقوة « أو قد وجدتموه ؟ ذاك صريح الايمان » .

انها وسوسة الشيطان سرعان ما يطردها الهام الملك فى قلب المؤمن . انها طيف يلوح ثم يختفى ، وهاجس يهجس ثم يزول باسلام الوجه لله والاعتصام بهداه وتلاوة آياته :

﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم ﴾ .

(آل عمران : ١٠١)

﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، والى الله عاقبة الأمور ﴾ . (لقمان : ٢٢)

وهى وسط فى أمر النبوة ، فلم ترفع الأنبياء الى مقام الألوهية . فيتجه الناس اليهم بالعبادة أو الاستعانة مع الله ، كما اعتقد أهل الملل فى أنبيائهم ولم تنزل بهم الى منزلة السفلة من الناس ، كما رأيها فى وصف أسفار العهد القديم للأنبياء .. انما الأنبياء فى عقيدة الاسلام بشر أصفياء ، علم الله طيب معادنهم وحسن استعدادهم ، فأنزل وحيه عليهم :

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ . (الانعام : ١٢٤)

وجعلهم أسوة لأتباعهم وعصمهم من قبائح الذنوب ودنىء الأعمال ، حتى يتوجه اليهم وعيد الله :

﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون ﴾ . (البقرة : ٤٤)

وهى عقيدة وسط فى قضية الارادة الانسانية ، قضية الجبر والاختيار ، تلك القضية التى حار العقل البشرى فى الوصول الى رأى فيها ، وتنازع فيها الفلاسفة والعلماء فى مجالات علم النفس والتربية .

عقيدة الاسلام فى هذا هى العقيدة الوسط المطابقة للفطرة السليمة والواقع المشاهد .. فالانسان فى دائرة أعماله الاختيارية ــ حر مسئول

عن نفسه وعمله ــ وله أن يفعل وأن يترك ، أن يقدم وأن يحجم ــ كما تشهد بذلك بديهته واحساسه ، وكما تشهد نصوص القرآن الكريم :

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ . (الكهف : ٢٩)

﴿ ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ﴾ .
(المزمل : ١٩)

﴿ من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ﴾ . (الجاثية : ١٥)

﴿ لا تكلف نفس الا وسعها ﴾ . (البقرة : ٢٣٣)

الى غير ذلك من مئات الآيات التى تقرر حرية الانسان ومسئوليته عن عمله .

ولم يكتف القرآن بهذا القدر الايجابى ، ولكنه حمل بقوة على الجبريين الذين يلقون بشركهم وأوزارهم على كاهل القدر ، محتجين بمشيئة الله ، فقال تعالى :

﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا باسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون ﴾ .
(الأنعام : ١٤٨)

﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل الا البلاغ المبين ﴾ . (النحل : ٣٥)

﴿ واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، ان أنتم الا فى ضلال مبين ﴾ .
(يس : ٤٧)

ولكن الانسان ــ كما هو الواقع ــ ليس مطلق الارادة ، كامل الاختيار ، بحيث يفعل كل ما يشاء ، وينفذ كل ما يريد ، ولو فعل لكان

الها .. ولن يستطيع أحد ـ مهما بلغ من الانتصار للحرية الانسانية ـ أن ينكر هـذه المحدودية لارادة البشر ، فقد حكموا فيه الوراثة أو البيئة أو كليهما .. هـذه الحقيقة المتفق عليها قررها الاسلام فى صورة أشرف وأكرم للانسان ، فهو حر الاختيار فى دائرة ما رسم الله للوجود من سنن ، يجريها بعلمه وحكمته ومشيئته على أجزاء الكون كله ، ومنها هذا الانسان ، فهو حر لأن الله أراد له الحرية ، أو هو يشاء لأن الله هو الذى قدر له أن يشاء :

﴿ **وما تشاءون الا أن يشـاء الله** ﴾ . (الانسان : ٣٠)

فالقرآن ـ بجانب ما يقرره من حرية الارادة الانسـانية ـ يذكر الجانب الآخر ، جانب الارادة الالهية النافذة ، والقدرة الالهية القاهرة :

﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا** ﴾ . (يونس : ٩٩)

﴿ **ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا . الا أن يشاء الله** ﴾ .
(الكهف : ٢٣ ، ٢٤)

﴿ **ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ . (الاسراء : ٣٠)

﴿ **يضل من يشاء ويهدى من يشـاء** ﴾ . (فاطر : ٨)

﴿ .. **قل كل من عنـد الله** ﴾ . (النساء : ٧٨)

والقرآن قد أدى للحقيقة حقها من كل جوانبها ، فلم يغمط الألوهية حقها ، كما لم يعد بالانسان قدره ، وكان بشموله واتساع نظرته كتاب العالم كله وكتاب الزمن كله ..

فالقرآن موجه الى الانسـانية المتطورة ، السائرة فى تطورها نحو الكمال والفكر ونحو النظرة الموحدة .

* * *